قبر الامام ابي يوسف

صاحب ابي حنيفة

La Tombe d' Abû_Yûsuf.

شاع منذ اجيال عديدة وأيقنت الحكومة العثمانية وعلماؤها في العصور الغابرة والحاضرة مع مؤرخيها وكتابها ان القبر الذي في باب مشهد الامام موسى ابن جعفر «رض» والواقع في مقابر قريش(وهي الكاظمية اليوم) هو قبر الامام ابي يوسف صاحب الامام ابي حنيفة « رض » ولم تزل الحفاوة به والاحترام لقبره يزدادان مع الايام وقد كانت الهدايا من سلاطين آل عثمان تتوارد الواحدة تلو الاخرى ويجدد مسجده كلما آل الى الخراب . وتعتني دائرة الاوقاف بصرف ما يحتاج اليه مسجده من اللوازم وغيرها بغيرة عظيمة بدعوى ان صاحب القبر هو الامام ابو يوسف قاضي القضاة في زمن الرشيد وصاحب ابي حنيفة .

ولكني قرأت في الجزء الثاني من وفيات الاعيان صحيفة ٤٠ (في ترجمة ابي يوسف يعقوب بن صابر الملقب بنجم الدين الشاعر) ما خلاصته: « وتوفي ابن صابر المذكور في ليلة الثامن والعشرين من صفر سنة ست وستمائة ببغداد، ودفن يوم الجمعة غريبا بالمقبرة الجديدة بباب المشهد المعروف بموسى بن جعفر رضي الله عنهما . انتهى : ولما راجعت ترجمة الامام المشار اليه في الكتاب نفسه وجدت في صحيفة ٣٠٧ ما خلاصته . « ان الامام ابا يوسف توفي يوم الخميس اول وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد . انتهى » ولم يعين محل دفنه .

وقد اخبرني بعض المعمرين ان قبرا بجنب قبر «الست زبيدة» تحت القبة التي في الشونيزي « مقبرة معروف الكرخي » ينسب للامام ابي يوسف وزاد انه راى كتابة على جدار القبة عند رأسه تشعر بدفنه هناك . وهذا امر ثان لابد من الركون اليه والتبصر فيه وهو ان زبيدة زوج الرشيد توفيت سنة ٢١٠هـ

(وفيات ج ١ ص ١٨٠) . هذا فيما لو صح ان هذه القبة وهذا القبر لها وهو امر لا يتفق والتاريخ لان ابن الاثير يقول (ص٢١٤ و ٢١٥) : «انها دفنت في مقابر قريش (١) » . وان ابا يوسف توفي سنة ١٨٢ هـ فهل كان دفنه تحت القبة قبل دفن زبيدة ام كيف كان الامر ؟ ولذا اضطربت من هذه الملاحظات لشدة وقعها في نفسي وقلت متعجبا : كيف فاتت العلماء والمؤرخين هذه الحقيقة الناصعة وكيف اخذ الناس بتعظيم قبر دفين مقابر قريش ابي يوسف « نجم الدين الشاعر » واهمين انه قبر الامام ابي يوسف تلميذ صاحب المذهب ؟ هذا وقد راجعت كل ما لدي من كتب التراجم فرأيتها كلها تجري على وجه واحد ضاربة صفحاً عن ذكر محل دفنه ، وقد رأيت في الجزء الثاني ص ٨٥ من كتاب « حماة الاسلام » تأليف المرحوم مصطفى بك نجيب المصري المطبوع بمصر في العشر الاخير من ذي الحجة سنة ١٣٤١ هـ ما نصه : « وتوفي [ابو يوسف] سنة اثنين (كذا) وثمانين ومائة (فعزى الاسلام بعضه بعضا بموته) ومشى الرشيد في جنازته ، وصلى عليه ، ودفنه في مقبرة اهله ، في مقابر قريش بكرخ بغداد بقرب زبيدة ومحمد الامين » اه . ففي قوله هذا خبط وخلط في التاريخ ، اذ انه يكذب من عدة وجوه بادنى تأمل ويكذبه من له اقل المام بالتاريخ . فقوله : « دفنه في مقبرة اهله بمقابر قريش بكرخ بغداد » خلاف الواقع لان مقابر قريش هي اليوم مشهد الامام موسى بن جعفر(ع) (معجم ياقوت ص ١٠٧ ج ٨) اما كرخ بغداد فقال ياقوت عنه (ص ٢٣٤ ج ٧) : « فيين شرقها ـ كرخ بغداد ـ والقبلة محلة باب البصرة . وقال ابن بطوطة في رحلته : « وفي الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي (ر ض) وهو في محلة باب البصرة » واليوم بين مقابر قريش ومقبرة معروف اي باب البصرة الواقعة في شرقي كرخ بغداد مسافة ساعة ونصف الراجل . واغرب من ذلك قوله بقرب زبيدة

(١) لاشك في ان زبيدة زوج هرون الرشيد دفنت في مقابر قريش (اي الكاظمية) . اما ما يسمى اليوم بقبر الست زبيدة فهو قبر زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق وزوج السلطان مسعود ابن السلطان محمد بن ملكشاه وكانت توفيت في سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) راجع مجلة دار السلام (١ : ١٩٧) (لغة العرب) .

وزبيدة كانت في الحياة لما توفي ابو يوسف كما ذكرنا آنفا وقوله ومحمد الامين اي بقربه غلط فاحش ايضا لان محمدا الامين قتل سنة ١٩٨ هـ وبين وفاة ابي يوسف ومحمد الامين ست عشرة سنة والصحيح في مدفن ابي يوسف (رح) ما اسلفنا ذكره ، وحققنا عنه اي انه لم يذكر له محل دفن معلوم .

قبر الست زبيدة احدى خواتين السلجوقية الذي يظن فيه العوام انه قبر زبيدة امرأة هرون الرشيد

« وبالختام ارجو من المؤرخين والباحثين ان يفيدوني بما لديهم من المعلومات في هذا الباب على صفحات جرائد بلادنا او مجلاتها اظهارا للحقيقة وخدمة للتاريخ والله ولي التوفيق .

عبد الحميد عبادة

(لغة العرب) جاء في كتاب تاريخ المساجد لاستاذنا الالوسي في ص ١٢٨

من نسختنا الخطية ما هذا حرفه : « وقد اتصل بهذا المسجد والصحن [صحن الجوادين والكاظمين] مسجد الامام الثاني ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم عليهم الرحمة والرضوان ومشهده فيه وعليه قبة كبيرة . وفي جنب مشهده مسجد تقام فيه الصلوات . وتؤدى الطاعات وهو مسجد رصين البناء قويم الارجاء فيه روحانية وانشراح للصدور ... »

وهذه العبارة تختلف عما جاء في النسخة المطبوعة ص ١١٩ . ولا نعلم على اي كتاب او مؤرخ اعتمد استاذنا المرحوم في كلامه هذا ، مع ما بذلنا من الجهد في الاهتداء الى محله . ويخيل الينا ان استاذنا الالوسي استند الى التواتر والله اعلم .

اللباب والرباعيات في نظر المستشرقين

كتب الينا صديقنا المستشرق الايطالي (جرجيو ليفي دلاڤيدا) مدرس اللغات الشرقية في جامعة رومة الكبرى ، ما يأتي :

ان هديتي الزهاوي : « اللباب والرباعيات » الي ، اعجبتاني كل الاعجاب ، وارجو منك ان تقدم تشكراتي الى الاستاذ الكبير ، والفيلسوف الشهير ، فقد وجدتهما من انفس الشعر والترجمة معا وتحققت ان الزهاوي في نظم الشعر وترجمته يعجب الجمهور ، لما في براعته من السهولة والتدفق ، وايقنت ان اللغة العربية بين يديه كالشمع تطيع انامله وتنقاد له انقياد العبد الذليل . وانا اقدر ديوانه لان في نظمه تجديدا للشعر العربي وذلك مما لا يرى في نظم اعاظم الشعراء الاقدمين .

وقدرت كذلك ما نقله الى العربية من رباعيات الخيام فقد افرغ الاساليب الفارسية في قوالب عربية تدهش القومين المتوغلين في لغتيهما .

ومثل هذا القول اقول عن نثره . فانه يدل على تفوق في كتابته ، قلما يشاهد مثله في مترسلي هذا العصر .

ونتيجة هذين السفرين انه القى ضياء جديدا على العربية فأخذت تميس في برد الجمال ، وجعلها مما يتشوق الى رؤيتها ابناء الغرب . فشكرا للزهاوي على

رومة في ٣١ آب ١٩٢٨